آية النبى صلى الله عليه وسلم

روى البخارى بسنده، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

قال النبى ﷺ: (مَا منْ الأنْبيَاء نَبىٌّ إلاَّ أُعْطىَ من الآيات ما مثلُه آمَنَ عليه البشر، وإنما كـان الذى أُوتيتُه وَحْيًا أوْحَاهُ الله إلىَّ فأرْجُو أنْ أكونَ أكثرهم تابعًا يَوْمَ القيَامَة).

* * *

الحديث الشريف يتكلم عن معجزات الأنبياء عليهم السلام و معجزته صلوات الله وسلامه عليه، والمعجزة أمرٌ خارقٌ للعادَة وللسنن الكونية، وخارج من طوق البشر فى زمان هذه المعجزات، وبعد زمانها إلى يوم القيامة. ومن الخطأ أن نفهم أن المعجزة ما أعجزت فى زمن نزولها وأنه يمكن أن تكون فى الأزمنة الأخرى غير معجزة، كما أنه من الخطأ أن نفهم أن الكشوف العلمية والتقدم العلمى يُلغى المعجزات، لأن المعجزة كما قلت لا بد أن تكون خارجة عن طوق البشر كل البشر، والتقدم العلمى داخل فى هذا الطوق، فخروج ناقة صالح عليه السلام من الصخرة أمر خارق، وسيظل كذلك أبدا، وكذلك عصا موسى عليه السلام، والطين الذى يخلق منه عيسى كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا، كل هذا لا يدخل البتة فى دائرة العلم، ولن يستطيعه العلم يومًا ما، لأن العلم اكتشاف للقوانين التى أقام الحق خلقه عليها، والمعجزة أمر خارج عن هذه القوانين.

وبعض الناس يقولون: انتهى زمن المعجزات، وأن ما كان معجزا فى الزمن الأول لم يعد معجزا فى زماننا، وهذه غفلة لا يقولها من أحكموا فهم هذا الباب. وتروِّجُ هذه الغفلة للفكر المادى لأن هذا يشكك فى النبوات ويدخل الخلط على من لم يُتْقِنوا معرفة المعجزات، ويروّجون أيضا القول بأن دائرة التديُّن تضيق

بمقدار اتساع دائرة العلم، والعكس أى أن دائرة التدين تتسع بمقدار ما تضيق دائرة العلم، وكثير من الأدب القصصى يقوم على هذا وهذا خلط وجهل بحقيقة التدين، ثم إن معجزات الأنبياء عليهم السلام كانت شيئًا مختلفا عن كتبهم، فلم تكن آية موسى فى التوراة، ولا آية عيسى فى الإنجيل، وقد شاء الله سبحانه أن تكون الرسالة الخاتمة معجزتها فى كتابها، فسمى القرآن آيات الله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ والآيات جمع آية، وهى الدالة دلالة قاطعة على أنه من عند الله، ولا تكون الآية آية إلا إذا كانت خارجة عن طوق البشر، يعنى كانت برهانا، وسلطانا من الله قاهرا، وقاطعا، فالقرآن رسالة وآية والإنجيل رسالة وليس آية وكذلك التوراة، وهذا هو ما دار عليه الحديث.

والحديث مكون من ثلاث جمل: جملتان كأنهما مقدمة، وجملة كأنها نتيجة، وهو من الكلام الشديد الإيجاز، ومن جوامع كلمه ﷺ، وفيه من إحكام البناء وإتقان الرصف، ما يجعله من أفصح كلام وأبينه، وأحاول بيان ذلك بإيجاز.

قوله عليه السلام: « ما مِن الأنبياء نبىٌّ إلا أُعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر » فيه أنه قال: « ما من الأنبياء نبى » وكان يمكن أن يقول « ما من نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر » لأن كل نبى هو لا محالة من الأنبياء أقول ما رجل من الرجال إلا وهو يفعل كذا، وما طالب من الطلاب ولا عربى من العرب ولا مسلم من المسلمين ونظائر هذا مما تذكر فيه الصفة ومعناها مفهوم من غير ذكرها لأن كل عربى لا محالة من العرب وكل مسلم لا محالة من المسلمين إلى آخره، وإنما يصار إلى هذا الأسلوب لتوكيد الاستقصاء وأنه لا يوجد رجل البتة إلا وهو داخل فى الحكم ولا طالب ولا عربى ولا مسلم.

ثم إن الكلام الشريف لم يكتف بذكر هذه الصفة المفيدة للاستقصاء، وإنما قدمها وجعلها رأس الجملة « ما من الأنبياء نبى » وهذا التقديم صيرّ هذه الصفة حالا، كالشاهد المذكور « لميَّة موحشًا طلل » والقصد العناية بهذا القيد، لأنه هو

الأصل الذى يرجع إليه المعنى، لأن المقصود أن كل نبى أعطى ما أعطى الأنبياء المعروفون، المذكورون بالنبوات، وليس كل الأنبياء على حد واحد لأن منهم من له شرع أَوْحَاهَ الله إليه وأُمِرَ بيلاغه، ومنهم من ليس له شرع؛ وإنما أمر بالدعوة إلى شرع من قبله، ولو راجعت الشاهد النحوى المذكور «لمية موحشا طلل» لوجدت الشاعر لما خلع كلمة موحشا من التبعية الوصفية وجعلها أنف الكلام أبرز معنى الوحشة فى الطلل وأشاعها، وجعلها تطرق القلب قبل الطلل ولو قال لمية طلل موحش لم يكن كالذى قاله، وهكذا الحديث الشريف لا ريب أن من الأنبياء وصف لنبى، ولكن الكلمة لما انخلعت من أن تكون تابعا لنبى، ووضعت فى أول الكلام الشريف بهذا التعريف، أحضرت فى القلب الأنبياء المعروفين المذكورين بالنبوات والمعجزات.

وصار السامع فى حضرة هذا المشهد المهيب الجليل يرى فيه كل الأنبياء تمهيدا للحديث عن الأمر الخارق الذى أمرهم الله به وكان أعظم منة عليهم وعلى أقوامهم.

وقوله عليه السلام: «إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر» ما بعد إلا مقصور عليه والأنبياء مقصورون على هذا العطاء قصر موصوف على صفة يعنى ليس هناك نبى إلا أُعطى، وكلمة أُعطى تعنى أن هذه الآية لا حول للنبى فيها ولا قوة، وإنما هى شىء أَعْطاه الله له، فهى من عند الله مَحْضًا وهى أمر الله لا شىء للبشر فيه.

وقوله: «ما مثله آمن عليه البشر» ما موصولة وهى مفعول به لأُعطى ومثله مبتدأ وآمن عليه البشر خبر، والفعل «آمن» يعَدى باللام فيقال آمن له، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ ويعدى بالباء فنقول آمن به، كما فى قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ومعنى الإيمان مع اللام أى انقاد له وبالباء أى صدَّق، وهو هنا مُعَدًى بعلى، لأنه ضُمِّن معنى الغلبة يعنى أن الآية غالبة عليهم لا تلتبس ولا تدفع ولا يروغ منها إلا مُعَانِدٌ، قال ابن حجر:

(والنكتة فى التعبير بها تضمُّنها معنى الغلبة، أى يؤمن بذلك مغلوبا عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه، لكن قد يجحد فيعاند)[1].

وهذا من البلاغة العالية لأنك ترى اختلاف حرف التعدية يبعث فى الفعل معنى آخر جديدا صارت به الآية أمرا غالبا لمن يغالبه مستعليا على من يدفعه لا يروغ منه إلا هالك، وكان ابن رشيق يقول أن إتقان الكلام الأول يرجع إلى مثل هذا أكثر مما يرجع إلى حسن الاستعارة، وديباجة المقابلة، وغضارة الجناس، وقال عليه السلام: « ما مثله آمن عليه البشر » ولو أنه قال ما آمن عليه البشر من غير ذكر كلمة « مثل » لكان الكلام مفيدا ولكن معنى جَليلاً من الكلام يذهب، وذلك لأن كلمة مثل جعلت كل آيات الأنبياء على مثال واحد، غير آية نبينا عليه السلام.

وهذا المثال الواحد هو فَصْلُهَا عن كتابها، ورسالتها، وجعلها أمْراً مستقلا، يؤكد أن هذا نبى، والذى سيبلغه لكم هو شرع الله وكلامه، وإن كان غير معجز، ولو قال ما آمن عليه البشر بدون كلمة مثل، لدخلت معجزة نبينا عليه السلام فى هذا، لأنها آمن عليها البشر، قال النووى: « اختلف فى معنى هذا الحديث على أقوال أحدها أن كل نبى أعطى من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء؛ فآمن به البشر، وأما معجزتى العظيمة الظاهرة فهى القرآن، الذى لم يعط أحد مثله ».

ثم ذكر أقوالا أخرى وهذا القول هو الذى يعنينى لأن كلمة مثل أفادت معنى « ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء » يعنى جعلت معجزات الأنبياء متماثلة فى أمر خالفها فيه معجزة محمد عليه السلام، لأنها هى القرآن الذى لم يعط أحد مثله يعنى كونه كتابا، وبرهانا وسلطانا.

وقوله عليه السلام: « وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىَّ » جملة ثانية معطوفة على التى قبلها، على حد قوله تعالى: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص٧

النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ والمناسبة ظاهرة، لأن الأولى بيان آيات الأنبياء عليهم السلام، وأنها متماثلة، وهذه بيان آيته عليه السلام، ثم إن هذه الجملة المعطوفة تستوفى المعنى الذى بدأ الكلام به، وهو آيات الأنبياء، فهى امتداد للمعنى الأول، وإن كان معطوفا عليه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ الجملة الثانية امتداد للمعنى الأول ومكملة له ومعطوفة عليه، وقد جرى فيها شوب من بناء الجملة الأولى، وهو القصر والأداة مختلفة، وإنما كان فى الأولى بالنفى والاستثناء، لأن هذا الطريق يُفيد توكيد المعنى وتوثيقه، وأنه مظنة أن يشوبه شىء من الإنكار، سواء كان هذا الإنكار على سبيل الحقيقة والواقع أم على سبيل الفرض والتقدير، وكل امرىء يعلم أن النبوة لا بد لها مِنْ بُرهان ولكن لما كان من الأنبياء من لم يبلغ بشرع وإنما أمر بالدعوة إلى شرع من كان قبله كان هذا مظنة أن يتوهم متوهم أن من كانت مهمته الدعوة إلى دين من سبقه ليس بلازم أن يكون له برهان، ومعجزة، لأنه يدعو إلى شريعة قام لها برهانها، وأيد الله رسولها بسلطانه، وهذا وجه النفى والاستثناء فى الجملة الأولى والأمر مختلف فى الجملة الثانية، لأن رسول الله ﷺ يحدث بما هو معروف ومشهور، وأن حجته ودليل نبوته هو القرآن العظيم.

وقوله عليه السلام: «وحيا أوْحَاه الله إلىَّ» جملة «أوْحَاه الله إلىَّ» صفة وكان يمكن الاستغناء عنها، لأن الوحى لا يكون إلا وحيا أوحاه الله إليه، ولو قال عليه السلام وإنما كان الذى أوتيته وحيا، لكان ذلك كافيا، ولكن هذه الصفة أفادت معنى التنويه بهذا الوحى، وتعظيمه، والنص على أنه من عند الله، وأن الله سبحانه هو الذى أوحاه، وكفاه منقبة أن يكون الله سبحانه بعظمته، وجلاله، وسلطانه، هو الذى تولىَّ إيحاء هذا الوحى، فرق بين أن تقول وَحْىٌ وأن تقول وحى يوحى، وأن تقول وحى أوحاه الله إليه، هذه الثالثة أدَلُّ الصيغ الثلاثة على التعظيم، والتشريف، والحفاوة بالوحى، وكذلك تقول آمن، ودخل الإيمان فى قلبه، وكتب الله الإيمان فى قلبه، الثالثة أعلاها لأنها أفادت أن الحق بجلاله كتب بنفسه الإيمان فى قلبه ويلاحظ أن القصر فى هذه الجملة ليس قصرا حقيقيا بمعنى

أنه عليه السلام لم يؤت من المعجزات إلا القرآن، لأن الواقع أن الله سبحانه أيَّد رسوله بمعجزات كثيرة ذكر بعضهم أنها تجل عن الحصر وكتب السيرة وتراجم الصحابة، وكتب السنة مشحونة بهذه المعجزات، وإنما ذكر عليه السلام القرآن لأنه، أبقاها، وأعلاها، وأدومها، وهو باق حتى تقوم الساعة.

وقوله عليه السلام: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا» أفادت هذه الفاء ترتيب هذه الرجوى التى هى كثرة أتباعه ﷺ على الجملة قبلها وهى أن برهان نبوَّته وحى أوحاه الله إليه، وهذا هو المعنى المقصود من الحديث، وما قبله مقدمة له، لأن ما قبله حقائق معلومة، وإنما كانت الآية التى هى وحى مؤدية إلى كثرة الأتباع لأنها آية باقية تخاطب كل جيل إلى يوم القيامة، وهى فى كل ذلك كيوم نزلت، من جهة دلالتها القاطعة والقاهرة على نبوة محمد ﷺ وهذا بخلاف المعجزات الى أيد الله بها الأنبياء السابقين لأنها انقطعت بانقطاع وقتها وصارت خبرا يرويه الثقات، وهذا شىء ومواجهة المعجزة شىء آخر.

الفرق بيننا وبين أهل الكتاب اليوم أن معجزة نبينا ﷺ بين أيدينا، وهى آية باهرة، ومعجزة موسى وعيسى عليهما السلام خبر يروى، وهذا فرق كبير.

وقد ذكر ابن حجر هذا الذى قلته ثم ذكر وجها آخر قال فيه (وقيل المعنى أن المعجزات الماضية كانت حسِّية مشاهدة بالأبصار كناقة صالح، وعصا موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون ما يتبعه من أجلها أكثر، لأن الذى يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذى شاهد بعين العقل باق، يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرا) انتهى كلامه ثم أشار إلى أن هذا والذى قبله لا يتدافع وقد ذكر أقوالا أخرى (١).

ثم لخص ابن حجر كلام القاضى عياض فى وجوه الإعجاز، وكلام القاضى ملخص من كلام العلماء، فذكر أولها حُسْن تاليفه والتِئام كلمه، مع الإيجاز

(١) فتح البارى جـ ٩ ص ٨

والبلاغة، وثانيها صورة سياقه، وأسلوبه المخالف كلام أهل البلاغة من العرب نظما ونثرا، حتى حارت فيه عقولهم، ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله، مع توفر دواعيهم على تحصيل ذلك وتقريعه لهم على العجز عنه.

وإنما أراد بسياقه وأسلوبه صورته العامة، من كونه سورا؛ منها الطوال والقصار والمفصل، ثم تأليف هذه السور من آيات وفواصل، ولم يعهد العرب كلاما كهذا، وإنما كان كلامهم شعرا ورجزا وخطبا ووصايا.

ثالثها: ما اشتمل عليه من الأخبار عما مضى من أحوال الأمم السابقة، والشرائع الداثرة، مما كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب، أقول وقد دلنا الله على أن هذا وجه من وجوه إعجازه في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٤٤] وقوله سبحانه: ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** ﴾ [القصص: ٤٤، ٤٥]. فقد نفت الآيات عنه ﷺ العلم بشيء من ذلك ولكنه الوحي.

رابعها: الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضُها في العصر النبوي وبعضها بعده. ومن غير هذه الأربعة آيات وَرَدَتْ بتعجيز قوم في قضايا أنهم لا يفعلونها فعجزوا عنها، مع توفر دواعيهم على تكذيبه، كتمني اليهود الموت في قوله تعالى: ﴿ **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾ ومنها: أن قارئه لا يمل من ترداده وسامعه لا يمجه، ولا يزداد بكثرة التكرار إلا طراوة ولذاذة، ومنها أنه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، ومنها جمعه لعلوم ومعارف لا تنقضي عجائبها، ولا تنتهي فوائدها» قال ابن حجر انتهى ملخصا من كلام عياض [١].

وأعقب على هذا ببيان موجز لشرح العلماء للإعجاز بحسن التأليف والتئام

---

(١) جـ ٩ ص ٩

كلمه فقد ذكر الشيخ عبد القاهر أنه «لا يثبت إعجاز حتى تكون فيه من المزايا ما يفوق علوم البشر، ومعلومات ليس فى مُنَن أفكارهم وخواطرهم ما يعينهم على الوصول إليها»، ومُنَن الأفكار والخواطر يعنى قواها، وهذه المزايا التى ليس فى قواهم ما يعينهم على الوصول إليها. إنما كانت بأن تتابعت كلمات، وجاء بعضها فى أثر بعض على طريقة مخصوصة، أعنى من استعمال أحوال اللفظ من تعريف، وتنكير، وتقديم، وتأخير، وحذف، وذكر، إلى آخر ما هو مذكور فى علم المعانى وكان عبد القاهر يعنى هذا حين يقول خصائص صادفوها فى سياق لفظه ومزايا وقعت لهم فى نظمه.

وهذه الأحوال قائمة فى الكلام كله، لأن الكلام لا يبنى إلاَّ عليها فليست المزية فى أنها وجدت، ولكن المزية فى قدرة المتكلم على أن يفرغ فى هذه الأحوال من مُنن خواطره، وأفكاره وبمقدار حظ الكلام، من الخواطر والأفكار التى سكنت فى هذه الأحوال تكون منزلته، وإنما تباينت منازل الكلام، واتسعت هذا الاتساع المعروف، بمقدار تفاوت حظوظ هذه الأحوال من المعانى والخواطر، فبقدر ما فى أحوال ألفاظى من قوى خواطرى تكون منزلة كلامى وبقدر ما فى أحوال ألفاظك من قوى خواطرك تكون منزلة كلامك، وهذا هو جوهر البلاغة، وهذا فقهها، وليست هذه قاعدة بلاغة كلام العرب فحسب، وإنما هى قاعدة بلاغة كلام البشر، لأن الإعجاز بحسن التأليف، والتئام الكلم الذى هذا شرحه، ليس إعجازا للعرب، وإنما هو إعجاز للكافة، فى كل الأزمنة، وكل الأمكنة، وكل الأجناس، والآية الكريمة نص فى هذا ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾.

وكان سبيل تحصيل هذا الباب هو استقصاء كلام العرب، وتحليلهُ والتفتيش فيه، عن المعانى، والخواطر المودعة فى أحوال لفظه، وقد ذكر عبد القاهر أن قدرات الشعراء وهم أهل البيان على إفراغ المعانى والأحوال ومنن الأفكار والخواطر فى تجاويف المبانى اللغوية، قدرة عزيزة جدا، وأن كل شاعر تقطر سحائبه فى هذه

الفراغات اللغوية، بمقدار ما فى هذه السحائب، وأن هذا أصل النقد، وأساس التمييز، والتفاضل بين الشعر، وبين الشعراء، وإنك لتقرأ الديوان لشاعر مذكور، ولا تجد فيه إلا القليل من تلك، الكلمات التى يتقاطر لديك من أحوال مبانيها ما يعجبك ويروقك، ثم أشار عبد القاهر إلى أن هناك طبقة من الشعراء المطبوعين تتكاثر فى أحوال كلماتها هذه المعانى وقال كلاما فهمت منه أنه أراد شعراء الجاهلية وأن هذه خصوصيات الشعر الجاهلى، وسمت من سمته، ثم ذكر أن ودائع أحوال اللفظ فى القرآن العظيم تخرج عن الطوق وأن الذى تحت أحوال اللفظ القرآنى من المعلومات لا يدخل فى طوق الأفكار والخواطر.

وأرجو أن تقرأ هذا مرة ثانية لأنه غامض، ولم يتجلّ لى إلا بعد مكابدة وقد اجتهدت فى تقريبه وبيانه.

وكانت هذه الصفحات فى دلائل الإعجاز، كأنها أسَاس، وقاعدة كلية، لأبواب أحوال اللفظ العربى التى جعلها عبد القاهر تفصيلا، وتحليلا، لهذا الأصل، والتى كانت بعد ذلك أبواب علم المعانى.

وأقول بصيغة أخرى إذا كانت معانى التقديم فى الشعر يروقك مسمعُها ويعظم لديك موقعُها فإن معانى التقديم فى القرآن تقطع الأطماع، وتفوق قوى البشر، وإذا كانت معانى التعريف والحذف والوصل لا يدركها إلا قوم أوتوا طبعا فى علم البلاغة هم به أفراد، فإن معانى هذه الأحوال فى القرآن تفوت الطوق، وهكذا معانى التشبهات فى القرآن معجزة، ومعانى المجازات والكنايات، كل فنون البلاغة دلالاتها فى القرآن خارجة عن الطوق.

وقد استقصى العلماء هذه الأحوال فى كلام العرب ورأوا أنها بلغت فى كلامهم حد الكمالات البشرية، ثم كانت فى القرآن على حد الكمالات المطلقة، وهذا هو سر إعجازها لأن بلوغ الإنسان بأى فنٍّ بيانى حد الكمال المطلق أمر مستحيل لأن طبع الإنسان لا يرتقى به البتة إلى الصفاء المطلق، والكمال المطلق، وكل ما يصدر عن الإنسان فيه لا محالة شوب من فطرته هذه، ومن

ضعفه الذى هو ضربة لازب فى كل ما يصدر عنه، وقد نفذ رسول الله ﷺ إلى السر الذى يحكم الفرق بين كلام الله وكلام الناس وقال كلمة تعد أصلا فى علم البيان وجذرا من جذور علم البلاغة وذلك فى قوله عليه السلام: «فضل كلام الله على كلام الناس كفضل الله على الناس» وقد قلت إن هذه الكلمة جذر فى علم البلاغة لأنها ربطت فضل كلام زيد يعنى خصوصياته التى تفضل بها كلام عمرو، بفضل زيد، وخصوصياته التى يفضل بها عمرا، وشدت العروة بين الكلام، وأحوال وخصوصيات قائله الخاصة التى بها يتميز ويعرف ويحدد وأعود إلى القرآن وأقول فى ضوء هذا الحديث الشريف إن إعجاز القرآن راجع إلى بلوغه الكمال المطلق فى ألفاظه، ومبانيه ومعانيه، ومقاصده، ومواعظه، وأمثاله، وقصصه، وتشريعاته، وآياته الدالة على الخالق، ووحدانيته ووصفه، لأحوال عباده، وكل شىء تناوله لم يَتَخلْخَلْ فيه حرف ولم يتغيَّر فيه معنى، ولا انتقضت له حُجَّة، ثابت كله بكل حرف، وكل صوت، وكل معنى، وفضل الله على الناس الذى ذكره رسول الله ﷺ هو ما لخصه العلماء فى أنه سبحانه وتعالى موصوف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص، وأنه ليس كمثله شىء وهكذا كلامه والذى يقرأ القرآن العظيم يتعلم منه العلم الذى لا يأتيه الباطل، ومع كل معلومة يعلمها برهان على أنها تنزيل من الله العزيز الحميد، وهذه هى المزية التى رجا بها عليه السلام أن يكون أكثر الأنبياء تابعا فحين تقرأ قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ تعلم أن المتقين هم الذين يؤمنون بالغيب أى بالله وملائكته واليوم الآخر والجنة والنار والحساب، وهم الذين يقيمون الصلاة، ويصاحب هذا العلم أن الكلام الذى يُعلمك هذا فيه برهان أنه تنزيل من عزيز حميد خارق للعادات وقاطع للأطماع، وما كان كذلك لا يأتيه باطل ولا يداخله ريب وهذا لم يتح لأحد قط قبل نزول القرآن، وهو نعمة لا يقادَر قدرها ولا يغفل عنها إلا غافل ولا يعاندها إلا مخذول.

ولا شك أن نعم الله على عباده لا تُعد ولا تُحصى هو خالقهم ورازقهم، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، ورزقهم من الطيبات وجعل لهم من أنفسهم

أزواجا وجعل لهم بنين وحفدة، وكل هذا وما هو فوق هذا نعم لا تحصى، وأفضلها وأجلها أن تضع بين يديك صحفًا تعلمك التكاليف، التى كلفك بها ربك، ورب الناس، وتضع لك المنارات على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، ثم وهذا هو الأهم، ترى فيها برهان الله القاطع، وسلطانه الباهر، والإعجاز الخارق، وأن الذى بين يديك كلام الله الذى أنت فى قبضته، والأرض جميعا فى قبضته، والسموات مطويات بيمينه، أنت تقرأ وفى الوقت نفسه تستضىء بنور الله، وتأخذ العلم من مشكاة تنزّلت لك، وبين يديك من بيت العزة، وفيها البرهان القاطع على أنها، وهى بين يديك تنزيل من حكيم حميد، أقول ليس فى النعم أعظم من هذه النعمة، وليس فى النبوّات شىء كهذا، وإنما هى كرامة كرم الله بها محمدا ﷺ وكرّمنا بها، ولما لحق بالرفيق الأعلى ﷺ أوصانا بها، وقال : «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا» فهو فينا كلام ربنا، ووصاة نبينا، ﷺ . ونعوذ بالله من الغفلة، ولا يجحد هذا الذى أقوله إلا جاهل مكابر، مخذول، لأن الآية غالبة وفضلها أظهر من أن يدل عليه، حسبك أنك حين يدور لسانك بآية تجد حجة محمد ﷺ تحت لسانك، وما تنزل من حكيم حميد تحت لسانك، وما نزل من بيت العزة تحت لسانك غضا طريا وما جاء به جبريل يخفق بجناحيه بين السماء والأرض تحت لسانك، ولا يهلك على الله إلا هالك.

قرأت كثيرا حول ما قاله العلماء فى وجوه إعجاز القرآن، ورأيت أن اختلافهم لا يعنى رفض وجه من الوجوه، وإنما يعنى رفض أن يكون هذا الوجه وحده وجه الإعجاز، فالذين ينكرون أن الإخبار بالغيب هو وجه الإعجاز لا ينكرون ذلك لأن الإخبار بالغيب غير معجز، وإنما لأن هذا ليس عاما فى كل آيات القرآن، وهو معجز فى الآيات التى جاء فيها، وتبقى الآيات التى ليس فيها، إخبار بالغيب يبحث لها عن وجه الإعجاز، وهكذا قل فى أخبار الأمم الماضية التى كان عليه السلام لا يعلمها هو ولا قومه.

وذكر عبد القاهر أن التحدى بالبلاغة، وليس بالمعانى وصحتها وسدادها

واضطراد هذه الصحة وهذا السداد، ووجهه فى ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ ويعنى مفتريات فى أى باب من أبواب المعانى تشاؤون، وفهمت من هذا أن الآية لا تفيد أن المعانى غير معجزة، وإنما هو من باب التسهيل عليهم فى المحادة، وأنه إذا كانت معانيه مما لا عهد لهم بها، فإن عهدهم موصول بالبلاغة والبيان، فليجتهدوا فيما لهم به علم، وليدعوا منه ما ليس لهم به علم، وهذا واضح.

وقرأت أن الرمانى ذكر أن التلاؤم – ويراد به النسق الصوتى – وجه من وجوه الإعجاز، يعنى أنك لو استمعت إلى القرآن بأذن أعجمية بحتة لا تعرف معنى مفرد ولا تركيب، ولكنها تتذوق البناء الصوتى من حيث هو نغم صرف، لأدركت فى هذا الجرس الصوتى وتلاؤمه وتشاربه وتطاعمه أمرا إلهيا، هذا فحوى كلام الرمانى وهو كما ترى كلام خبير بتذوق الأصوات، ثم قال بهذا الشيخ عبد الله دراز ثم السيد قطب وذكر واقعة تؤكد ذلك. وقد سمعت من بعض شيوخنا وهم يذكرون وجوه الإعجاز، واختلاف العلماء فيها قالوا إن القرآن معجز بكل ذلك، وقد هُديت إلى القول بالكمالات المطلقة فى كل ما هو فى القرآن، من ألفاظه ومعانيه، وأصواته، ومواعظه، وقصصه، وأمره، ونهيه، ولم أذكر أنى قرأت هذا القول لأحد ممن يؤخذ عنهم العلم، وهو ليس بعيدا عن الحديث الذى ذكرته.

وأرجو أن أكون قد أصبت. وشىء آخر لم تتوفر عليه أقلام الباحثين وهو ما سمَّاه الخطابى البلاغة الخاصة بالقرآن، وأنا لم أقرأ هذه الكلمة لأحد قبله، وربما كانت فيما ضاع من علومنا ومصادرنا، وإن كنت أميل إلى القول بأنها من بدايات أبى سليمان الخطابى العدوى القرشى، من ولد زيد بن الخطاب بن نفيل شقيق عمر رضى الله عنهم، أجمعين، وله فتوحات فى فهم كلام رسول الله ﷺ وإنى لأهَشُّ لاسمه حين أرى الشراح يسوقون له قولا، ومثله الطيبى والنووى، وغيرهم ممن انقطعوا لخدمة السنة رضى الله عنهم وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين، اللهم آمين.

والبلاغة الخاصة بالقرآن غير بلاغة التأليف مثل التقديم، والتشبيه، لأن هذه قائمة فى كلام الله وكلام الناس، والبلاغة الخاصة بالقرآن لا يوجد منها شىء فى كلام الناس، وخلاصتها، قيام البُرهان على استحالة صدور هذا القرآن عن النفس البشرية، لأنه ليس فيه شىء من طباع هذه النفس، وطبع النفس منعكس فى كلامها، وتستطيع أن تستخرجه من هذا الكلام وخصوصيات كل نفس مودعة فى كلامها، وإنك لتعرف كل ذى كلام من كلامه، ولهذا قالوا: تكلم لأعرف من أنت، وقالوا:

وفى الصمت ستر للغبىّ وإنما صحيفةُ لُبّ المرء أن يتكلم

والقرآن العظيم ليس فيه شىء من هذه الأحوال، ولا من هذه الخصوصيات، لا تجد فيه ريح النفس الإنسانية، ولا تجد فيه نفس الإنسان، وهذه لفتة بارعة هُدى إليها الخطابى، وجرى شىء منها فى كلام الباقلاني، ثم شىء منها في علوم القرآن، ورجع بها البعض إلى قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾ أى لاعتراه، ما يعترى كلام البشر من الاختلاف، والتنوع والتلوُّن، فتختلف عليه القوة، والضعف والسداد، والاختلال، وغير ذلك مما هو فى كلام الناس، ومما هو من طباعهم التى هى لا محالة كائنة فى كل ما يصدر عنهم، وهذه الآية يمكن أن تكون أصلاً للحديث الشريف (فضل كلام الله على كلام الناس كفضل الله على الناس).

ويمكن أن تكون أصلاً من أصول دراسة علم البيان، ويمكن أن توجه الدراسة البلاغية وجهة جديدة لأننا فى البلاغة ندرس الأصول العامة من غير أن ندرس العلاقة التى بين البيان، وصاحب البيان، والآية الكريمة والحديث الشريف يُوجِّهان الدرس البلاغى إلى كشف العلاقة بين القول والقائل، وربط فضل البيان بفضل صاحب البيان ودرجات هذا الفضل وكيف تتوازن فيستوى فضل زيد بفضل بيان زيد، هذا عالم آخر وميدان آخر، وهو عالم زاخر وميدان غير موطوء، وأنا هنا أذكر رؤوس مسائل وهى محتاجة إلى دراسة مُتَّسِعة، تدرس الإعجاز والبلاغة

والشعر، والنثر من هذا الوجه القديم والجديد معا، هى فى الإعجاز تقيم البرهان على استحالة صدوره عن أهل الأرض، وهذا شىء جديد، وإن كان علماؤنا نبهوا إليه فى الزمن الأول بل إنى أجد لهذه الفكرة ريحا فى زمن المبعث، وذلك حين كان يقرأ رسول الله ﷺ القرآن على الوافدين من العرب للحجيج يُسمعهم ما جاء به ﷺ، وكان كثير منهم يقول له عليه السلام أعد فيعُيدُ فيقول ليس هذا من كلام أهل الأرض، أى ليس مصدره الإنسان كما نقول.

وما دام ليس من كلام أهل الأرض فليس ببعيد أن تتولد فى النفس فكرة تقول أن بلاغته ليست من بلاغة أهل الأرض، وهذا قريب جدا ومعناه البلاغة الخاصة به كما قال الخطابى، وإنما يهدى إلى مثل هذا التدبُّر. وكان عند أوائلنا أصلا من أصول طلب العلم.

وهذا الوجه يضاف إلى الوجوه الأخرى ولا يُلغيها لأنه يستحيل أن تقول إن الخطابى ينكر القول بالإعجاز البلاغى على المذهب المعروف، كيف وقد ذكره وقال إنه يعرض فيه الأشكال، لأنه يعتمد على الطبع، وذكر حكاية الفرزدق، وذى الرمة فى شأن الأبيات التى أعانه بها جرير، وإنما حاول الخطابى أن يفتح نافذة أخرى، تُطل على أفق جديد لإعجاز القرآن، ولو راجعت كلامه وجدته وهو فى صياغة أصول هذه البلاغة الخاصة بالقرآن يستصحب البلاغة المعروفة، ويجعلها جزءا من مكونات هذه البلاغة الجديدة، وذلك حين يقول إن عناصر الكلام ثلاثة لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط بينهما ناظم، ثم يذكر مواقعها فى كلام الناس، وحظ كل كلام منها، ثم يقول إنها لم توجد على أصح وجوهها، وأحسنها، إلا فى القرآن العظيم، فقد جاءت ألفاظه أحسن الألفاظ، ونظومه أحسن النظوم، ومعانيه أصح المعانى، وليس هذا فى فطرة بيان البشر، يقرر الخطابى الوجوه التى سبقته ثم يضيف إلى منظومة الإعجاز هذه نغمة جديدة من غير أن يشطب شيئًا من النغمات القديمة، وهذه طريقة العلماء، الذين تَربُو بهم العلوم، ويعلو بهم البناء.

شيء آخر أجده في نفسي وأنا أقرأ القرآن وهو أن الله سبحانه وتعالى أَوْدَع في خلق الإنسان اليقين القاطع بأنه مربوب أي له رب هو خالقه، وأنه دائما في قبضة خالق قادر، إذا حَاوَل الأمر لا يُغلب سبحانه وتعالى، وإنما كان هذا جزءا من فطرته، لأن الله سبحانه وتعالى أودع أمره في خلقه، سواء الإنسان والحيوان، والنبات، والأرض، والسحاب، والرياح، وكل ما خلق الله وبرأ، وأمر الله الذي أريده هو أن هذه الكائنات لا سلطان لها على مكوناتها، التي بها كانت، فالإنسان لا سلطان له على حركة دمه في شرايينه، ولا سلطان له على عمل قلبه، ونبضه، ولا على أعضائه، وعالمه الذي في داخله، ووظائف هذا العالم ومكونات هذا العالم، كل شيء في داخل جسدي يؤدي وظيفته ولا سلطان لي عليه، وهذا معنى أن الإنسان مربوب بطبعه لائذ إلى ربه بعجزه، ومع هذا لم يرتدع الإنسان، ولم يكف من جنوحه وطغيانه، ولكنه مع هذا الجنوح، وهذا الطغيان محكوم بفطرة لا يستطيع أن يخرج منها، ولا أن ينخلع منها، إحساسه القاطع أنه تحت سيطرة قوة مهيمنة، ومالكة وقاهرة، ومتصرفة، وحكيمة، ومدبرة، ومتقنة لصنعها، والإنسان يرى أنه ليس وحده الذي على هذا الحال، وإنما الكون كله، كل الكائنات الحية كالإنسان تأكل وتشرب وتتقلب، وقد أُعطى كلٌّ خلقه ثم هُدى إليه، وهي لا سلطان لها على ما في داخلها، بل ولا علم لها به، وكذلك الرياح، تسوق السحاب، ولا تستطيع أن تكف نفسها عن ذلك، والسحاب يحمل الماء ولا يستطيع أن يمتنع عن ذلك، والشجرة تُؤْتي ثمارها من غير إرادتها، والروض يخرج نواره وأزهاره يرضى بذلك أو لا يرضى، والزهرة تبعث أريجها وهي لا تدري، الإنسان يرى ذلك، ويرى السموات والأرض في قبضة هذه القدرة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ** ﴾ [فاطر: ٤١] .

وهذا شيء من معنى قوله تعالى: ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ** ﴾ فمنظومة هذا الوجود والإنسان منها منظومة مُسبِّحة بطبعها متجهة إلى الله بأصل خلقتها.

فإذا كان هذا الحق الواضح قائما في نفوسنا، وقرأنا قول الله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أيقنا أن الإنسان المربوب بفطرته لا يمكن أن ينخلع من هذه الفطرة التى هى أصل كيانه، ثم يضع نفسه موضع الحى القادر ويقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ وهل يستطيع العاجز عن أن يهيمن على النفس المتردد فى صدره أن يسيطر بخياله على السموات والأرض وأن يقول: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ أنا لا أقول يزعم أنه خلق أو زين وإنما أقول يضع نفسه - مجرد وضع نفسه - موضع المهيمن المسيطر، ويتكلم بلسان الخالق القاهر، وقل مثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ كيف يستساغ القول بأن قائل هذا من البشر، وقد وضع نفسه موضع المهيمن، والمسيطر على الأزمان والأجيال، وقال آتينا موسى الكتاب، ثم التفت إلى محمد وقال فلا تك فى مرية من لقائه، يعنى آتيناك الكتاب كما آتيناه الكتاب، فلا تك فى مرية من لقاء كتابنا الذى أنزلناه، عليك، والذين يقولون إن القرآن كلام محمد كيف يُستساغ عندهم أن يضع نفسه موضع الحى القادر، ثم يعود فى نفس اللحظة، ويضع نفسه موضع الذى يتوجه إليه الأمر، والنهى، والكف والزجر، ويقول لنفسه «فلا تك فى مرية من لقائه» وهل يستشرف خاطر إنسان إلى الأفق الذى يُطلُّ منه مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ وغير ذلك كثير من الآيات الصادرة عن عزة الربوبية لا أدرى كيف يُستساغ القول بصدورها عن نفس بشرية؟

إن كلام الناس بين أيدينا فى حاضرنا، وماضينا، وحواضرنا وبوادينا وليس كلام العرب وحده وإنما كلام العرب والعجم. كلام الناس كل الناس، الحكماء والسفهاء، والعقلاء، والمجانين، هل رأينا مثل هذا صدر عن إنسان؟ ثم إن كلام محمد ﷺ بين أيدينا هل فيه شىء أى شىء يشبه هذا؟ إنه من المفيد جدا أن ندرس كلام رسول الله ﷺ ثم ننظر فى المصحف، لنجد الفرق القاطع، والأمر الظاهر الباهر، فهل كان لمحمد عليه السلام لسانان؟ لسان يتحدث به فى الناس،

ويخطب به، ويعلم به، ويعظ به، ولسان يقول به القرآن؟ إن كلام رسول الله ﷺ فيه من الإتقان والإيجاز، والإحكام، والسداد، ما لا يشُكُّ فيه دارس منصف متذوق، ولكنه داخل في فطرة كلام الناس، يلتبس كلامه بكلامهم، وتنال ألسنتهم ما يناله لسانه وإن كان أفصحهم بيانا، وأعلاهم قدرا، وأرجحهم بلاغة، ولكن هذا القرآن شيء آخر يقول الباقلاني: « ولَوْ كَانَ القرآنُ من كلامه لكان البَوْنُ بين كلامه وبَيْنَه مثلَ ما بين خُطبة وخُطبة ينشئهما رجل واحد، وكانوا يعارضونه »(١) .

إني أعجب حين أجد رجالاً يُذكرون بأنهم نقاد أدب أو أهل شعر وبيان، ثم يقال عنهم أنهم ماديون، أو منكرون للقرآن، والله أعلم بحقيقة ما يقال، وأقول في نفسي كيف يكون ناقد أدب من يستوي عنده مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٨] هل يستوى هذا بقوله: « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » وهي سيدة شعر العرب؟

وأى خيال يطيق أن يقول: ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ أو يتصور صورةً يعبر عنها بقوله: ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ثم يوشيها بقوله والملك على إرجائها، أى شيء هذا ثم يقول: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ ثم يقول: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ تأمل هذه الجملة الأخيرة لا تخفى منكم خافية. هل يمكن أن تصدر عن غير من لا تخفى عليه خافية؟ .

والاختلاف بين هذا وكلام الناس لا يحتاج إلى علم ويدرك بالحاسة كما يقول الباقلاني يعنى يدرك بالعلم الضرورى، وعبارته رحمه الله هى « وإن كان

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٩٤

النظم المختلف الشديد التباين إذا وجد أدرك اختلافه بالحاسة إلا أن كل وزن وقبيل إذا أردنا تمييزه من غيره احتجنا فيه إلى الفكر والتأمل»[1] .

وبعد فهل يمكن أن نقول إن صدور مثل هذا عن عِزّة الربوبية وجه من وجوه إعجازه وباب من أبواب البلاغة الخاصة بالقرآن وبرهان قاطع على استحالة خروجه من مخرج بشرى؟

الذى يقول إن مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

مما يمكن أن يصدر عن نفس بشرية لا يكون إلا معاندا ومكابرا وجاحدا ومتعسفا، وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الصنف وهو سبحانه أعلم بخلقه. قال سبحانه ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقال سبحانه : ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ وهؤلاء كما وصف الحق كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها.

إن إقامة الدليل على استحالة صدور مثل هذا عن نفس بشرية كأنه إقامة الدليل فى رائعة النهار على وجود النهار ولا يكون مثل هذا مطلبا لذى عقل.

نعم إن هذا محتاج فقط إلى تنبيه وليس محتاجا إلى دليل وقد أغفلناه فى دراستنا، نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ ونشرح التشبيه ونقول إنه شبه القمر فى آخر منازله بالعرجون القديم، ونسكت عن هذا الإعجاز الباهر، فى قوله «قدرناه منازل» وأنه لا يمكن أن تكون هذه الجملة صادرة عن نفس إنسانية، لأنها ليست من طابع هذه النفس، ولا يجوز أن تكون النفس الإنسانية بعجزها ومربوبيتها لها مُنْطلَقًا. ونقول فى آية ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ إنه استعارة محسوس لمحسوس والوجه عقلى، لأن السلخ مُسْتعار لكشط الجلد، وإزالته عن الشاة ونحوها، والمستعار له إزالة الضوء عن

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٩٤

مكان الليل، ومُلقى ظله كما يقول الخطيب القزوينى(١)، ويشغلنا هذا وهو تحليل لغوى جيد، لا يجوز التفريط فى شىء منه عن الهيمنة المقتدرة، القادرة، والصادرة عن عزة الربوبية، والساكنة فى نون العظمة فى قوله سبحانه: ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ وأنه من الاحالة بمكان مكين أن يصدر هذا عن إنسان وصفه خالقه بالضعف وقرن ضعفه بضعف الذباب: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

وأختم هذا بكلمة رفيعة للباقلانى، هى التى استخرجت منها ذلك، قال رحمه الله: «الكلامُ الصادرُ عن عِزَّةِ الربوبِيَّةِ وَرِفْعَةِ الألوهية يتميز عَمَّا لَمْ يَكن كذلك»(٢).

* * *

(١) بغية الإيضاح جـ٣ ص ١٣١
(٢) إعجاز القرآن ص ٢٨١